بأنّها تنحدر من بعض الحيوانات ، لدا فقد أصبح من الأمور الطبيعية و المشاعة عند تلك القبائل تحريم أكل تلك الحيوانات ، كما انتشـــــــــرت الوثنية بين السكان و استمرت متواجدة بين بعض القبائل حتى بعد انتشار الإسلام .

المحاضرة رقم:05

ثالثا : مملكة السنغاي الإسلامية (777 – 1000 ه / 1375 – 1593 م) .

لقد بلغت إمبراطورية غانة و إمبراطورية مالي شأوا عظيما و استطاعتا السيطرة على بطاح واسعة من مناطق غرب إفريقيا ، و لكن أيا من هاتين الإمبرطوريتين لم تبلغ ما بلغته إمبراطورية السنغاي من القوة و السيطرة خلال القرنين التاسع و العاشر الهجريين / 15 – 16 م .

1 – التاريخ السياسي لمملكة السنغاي قبل الأسيكيين : تنسب مملكة السنغاي إلى قبائل السنغاي ، و اختلف المؤرخون حول أصول هذه القبائل ، و ذكرت الباحثة جوان جوزيف أنّ أصلها يعود إلى قبيلة نشأت على ضفاف نهر النيجر الأوسط في الفترة ما بين القرنين السابع و التاسع الميلاديين حين غزت قبيلة ضيا (Dia) و هي إحدى قبائل البربر تلك المناطق و أسسوا أسرة حاكمة و هي أسرة ضيا ، و أول ملك تولى كان اسمـــــــــــــــه ضيا العالمين ، و في بدايـــــــــة القرن 11 م و تحديدا سنة 400ه/1010م أسس الملك كوزي (Kosi) أول عاصمة للملكة و هي مدينة جاو (Gao) و تقع شـــــــرق الثنية الشمالية لنهـــــــر النيجر ، و قد اعتنق هذا الملك الإســــــــــلام ، و أصبح من المعتاد بعدئذ أن يكون حاكم قبائل السنغاي من المسلمين رغم أنّ القبائل نفسها لم تعتنق الإسلام و ظلت على ديانتها.

و بعد انتهاء حكم أسرة ضياء لمملكة السنغاي سنة 736ه/1335م تسلّم حكم البلاد عائلة "سني" حينما استقل علي كلن عن مالي ، و حكمت هذه العائلة و التي هي فرع من أسرة ضياء في الفترة (736 – 899 ه / 1335 – 1439 م).

و كانت سنغاي لفترة طويلة من الزمن بين التبعية المطلقة لمالي و الإستقلال الذاتي عنها أحيانا أخرى ، فقد غـــزت جيـــــــوش من الماندنغ غـــــاو عاصمة السنغاي ما بين 683-699ه/1285-1300م و أقام منسا موسى مسجدا في المدينة عقب عودته من الحج في حدود سنة 723-724ه/1324-1325 م ، و نظمت جماعات الماندنغ المنطقة الواقعة على منحنى نهر النيجر إقتصاديا ، فأصبحت غاو موقعا تجاريا كبيرا.

و بوفاة منسا موسى سنة 738ه/1337م أخذت سنغاي تشق عصا الطاعة على سلاطين مالي حيث تجرأت على مهاجمة الحدود الشرقية للملكة و السيطرة عليها ، الأمر الذي أجبر ماري جاطة وزير الملك موسى الثاني (776-789ه/1374-1387م) على تجريد حملة عسكرية لإسقاط غاو إلا أنّ الحملة فشلت ، و منذ تلك الفترة تخلصت سنغاي من سيطرة مالي .

و يعد سني علي (870-898ه/1464-1492م) المؤسس الحقيقي لدولة السنغاي لما شهده عهده من ضم للكثير من الأقاليم لاسيما بعد استيلائه على مدينة تنبكت سنة 873ه/1468م و مدينة جني سنة 878ه/1473م ، و كان سني علي شديد الغضب غير ملتزم على نحو كامل بتعاليم الإسلام ، يقوم بإصدار أوامره بقتل كل من لا يتفق معه في رأي أو قـــــــــــــــول أو كل من يقدّم له النصح من علماء بلاده الذين قتل منهم الكثير ، لكنّه يعود و يندم على فعلته بعد ذلك، و قد شكك كثير من المؤرخين في صدق إسلامه و اعتبروه تيارا مضادا للإســــــــــــــلام ، و يذكر أحد الباحثين أنّ سني علي لم يحسن إسلامه حيث لم يهجر يوما العبادات التقليدية للسنغاي ، لذلك لم يتوقف رجال الدين عن انتقاده ، و لم يتردد المؤرخ عبد الرحمان السعدي في وصفه بالظلم و الفسق حيث قال :" إنّـــــــــه كان ذا قـــــــوة عظيمة فاسقا معتديا متسلطا سفاكا للدمـــــــــــاء ، قتل من الخلق مـــــــــالا يحصيه إلا الله ، و تسلّط على العلماء و الصالحين بالقتل و الإهانة و الإذلال".

و من فتوحات سني علي أيضا فتح مملكة الموسي و ضمّها لمملكته ، و تقدّم شرقا فهاجم بعض إمارات الهوسا ، ثمّ اتجه غربا فاستولى على بلاد الماندنجو و الفولاني و معظم ممتلكات دولة مالي الإسلامية ، و اتجه شمالا حتى مواطن الطوارق ، و عند وفاته سنة 898ه/1492م كان سلطانه نافذا على إمبراطورية كبيرة ، و يقال عن وفاته أنّه أثناء عودته من إحدى الغزوات داهمه سيل جارف في الطريق فأهلكه ، و خلفه ابنه أبو بكر الذي رفض العلماء الإبقاء عليه في الحكم لضعفه و اختاروا بدلا منه وزيره محمد توري ، و ذهب أحد الباحثين إلى أنّ هذا الوزير و بالتعاون مع أخيه عمر كمزاغ تآمرا على سني علي و قاما بالإطاحة به.

2 – مملكة السنغاي في عهد الأسيكيين : بعد وفاة سني علي سنة 898ه/1492م خلفه ابنه و لكن محمد بن أبي بكر توري جمع جنوده و خاض معركتين ضد ابن سني علي و هزمه و أجبره على الفرار إلى قرية قريبة من جاو و بقي فيها إلى أن توفي سنة 899ه/1493م ، و بموته انتهى عهد السني ، و يقال إنّ بنات سني علي عندما سمعن بانتصار توري و توليه العرش هتفن "إسكيا" ، و معناه ليس هو ، فلما سمع ذلك أمر ألا يُلّقب إلا به ، فقالوا أسكيا محمد ، و يقال بأنّ أصل محمد توري من عشيرة توري المنحدرة من التكرور و أنّ أصلهم من صنهاجة .

و بعد تولي الأسكيا محمد الحكم قام بتنظيم شؤون البلاد من الناحية الإدارية و استخدم طائفة من الموظفين الأكفاء ، و نظّم الجيش و أفاد من الخبرات السابقة ، و اتخذت حركته مظهرا إسلاميا واضحا نتيجة عملين قام بهما ، الأول اهتمامه بالشؤون الدينية و استغلاله ثروة سلفه في النهوض بها ، و الثاني قيامه بالحج إلى بيت الله الحرام سنة 902ه/1495م ، و كان موكبه يفوق ما عرف عن موكب منسا موسى من حيث الفخامة و الأبهة ، و استردت تنبكت في عهده مكانتها كمركز

للدراسات الإسلامية في غربي إفريقيا، فقد عرفت المدينة في هذا العهد كل المعارف التي توصل إليها العالم الإسلامي.

و كان الأسكيا الحاج محمد قد تبنى حركة جهاد كبيرة ضد قبائل الموسي الوثنية مابين سنتي 903-904ه/1497-1498م و انتصر عليهم إلا أنّـــــه لم يستطع أن يدخلهم تحت سلطانه ، و في سنة 905ه/1499م تحركت قواته لمواجهة أحد حكام إقليم مالي و اسمه عثمان و الذي استفتى فيه الأسكيا محمد الإمام السيوطي (ت911ه/1505م) .

و في سنة 906ه/1500م توجهت قوات السنغاي نحو الجنوب الشرقي حيث منطقة "أيورو" و التي اعتصم بها سني بارو و قومه فانتصرت عليهم تلك القوات و سيطرت على مكان تواجدهم ، و في الفترة 912-918ه/1506-1512م استطاع جيش السنغاي أن يضم كل بـــــــلاد مالي القديمة لأملاكه ، ثمّ توجّه شرقا ليضم عددا من مدن بلاد الهوسا سنة 919ه/1513م

و على الرغم من هذا المجد الشامخ الذي شيّده الأسكيا محمد إلا أنّ نهايته كانت بإقصائه من الحكم على يد ابنه الأكبر موسى الذي استغل عيد الأضحى و الأمير في المصلى ، فحلف أن لا يصلي أحد حتى يتولى الأمر ، فسلّم له والده و صلى الناس صلاة العيد.

و بدأ الأسكيا موسى عهده (934-937ه/1528-1531م) بالصـــــــراع مع إخوته ، و استمر في الحكـــــــــم حتى اغتيل ، و خلفه الأسكيا محمد الثاني (937-943ه/1531-1537م) حيث بايعه سكان مدينة منصور في إقليم جني بعد مقتل موسى مباشرة ، و استطاع أن يقضي على الصعاب خلال عهده ، و قد توفي هو الآخر مقتولا على يد أخيه إسماعيل الذي حكم لمدة عامين (943-945ه/1537-1539م) و اشتهر بشجاعته ، و قد قاد حملة ضد الوثنيين في الجنوب الغربي للملكة ، و انتشر في عهده الطاعون الذي فتك بأعداد كبيرة ، و قد توفي في قتاله الوثنيين.

ثمّ تسلّم الحكم الأسكيا إسحاق الأول بمساندة من الجيش (946-956ه/ 1539-1549م) ، و شهد هذا العهد بداية تدخل السعديين حكام المغرب الأقصى في بلاد السودان الغربي ، و خلفه الأسكيا داود (956-990ه/1549-1582م) الذي حكم البلاد بحكمة ، و امتاز عهده بكثرة المعارك مع القبائل الوثنية المحيطة ببلاده ، ثمّ انتقل الحكم إلى الأسكيا محمد الثالث (990-995ه/1582-1586م) و واجه الكثير من المشاكل الداخلية لاسيما الصراع على الحكم ، و في هذا العهد جهّز سلطان المغرب الملّقب بالذهبي حملة عسكرية وصلت إلى مناجم الملح في تغازة و احتلتها.

و كانت هذه الحملة سببـــــــا في تنحية الأسكيا محمـــــــد الثالث و تنصيب أخيـــــــه محمد باني (995-997ه/1586-1588م) و الذي اشتغـــــــل بتصفية إخوته الذين شكّ في ولائهم له ، و بعد وفاتـــــــــه

تسلم الحكم أخوه الأسكيا إسحاق الثاني (997-1000ه/1588-1591م) و الذي شهد عهده نهاية حكم الأساكي لدولة السنغاي حينما ثار عليه أحد رجال الدولة و يدعى "ساليكي تونكارا" بمساعدة حاكم ولاية "بالاما" و بدعم من شعب تنبكتو .

و مثلت الرسالة التي أرسلها السلطان أحمد منصور السعدي إلى الأسكيا إسحاق الثاني النهاية الحتمية للدولة و التي طالبه فيها بالإعتراف بسلطان المغرب على السودان الغربي و تسليم مفاتيح تغازة ، إلا أنّ الأسكيا إسحاق الثاني رفض ، فجهّز السلطان المغربي حملة بقيادة جودر باشا و بعد معارك دخلت القوات المغربية مدينة غاو سنة 1002ه/1593م بعد أن وصلت تعزيزات من المغرب بقيادة ابن زرقون الذي أصبح قائدا للحملة بدل جودر ، و حاول الأسكيا نوح مقاومة المغاربة إلا أنّ الحملات المتتالية التي كان يرسلها المغاربة أرغمته على ترك البلاد ، الأمر الذي أكّد نهاية دولة السنغاي تحت حكم الأساكي سنة 1004ه/1591م .

3- الجوانب الحضارية لمملكة السنغاي :

أ – التنظيم السياسي و الإداري : يقوم النظام الملكي في غاو بما له من تقليد قديم في الحكم على أساس القيم الإسلامية و التقليدية و ذلك في عهد الأسكيا ، و قد اعتنق ملوك غاو الإسلام منذ القرن 11م ، و كان عليهم من حيث المبدأ أن يحكموا طبقا لتعاليم الإسلام ، و كان الأسكيا محمد الأول و الأسكيا داود يرتكزان على الإسلام في حين كان سني علي و أغلبية الأساكي الآخرين يغلب عليهم الطابع السنغي أكثر من الطابع الإسلامي ، و كان أكبر الإخوة يتولى الحكم بعد موت الملك ، و الواقع أنّ معيـــــار القوة هو الذي كان يحـــــــدد خليفة الملك ، و تتشكل الحكومة من وزراء و مستشارين يعينهم و يقيلهم الأسكيا ، و كانت هناك الحكومة المركزية التي توجد حيث يوجد الأسكيا و حكومة الأقاليم.

و نجد البعض يطلق على هذه المملكة خلافة على غرار الخلافة الإسلامية في تلك الفترة خاصة بعد ذهاب الأسكيا محمد لأداء فريضة الحج سنة 899ه/1494م ، و يذكر الناصري أنّ الأسكيا محمد جرى على منهاج الخليفة العباسي في مقعده و ملبسه و سائر أموره.

و فيما يتعلق بالتنظيم الإداري فقد قُسمت الإمبراطورية إلى إقليمين كبيرين ، إقليم كورمينا في الغرب و إقليم دندي في الجنوب الشرقي ، و يطلق على متولي الإقليم لقب فاري ، و في أغلب الأحيان تسند هذه الوظيفة لولي العهد ، و كان فاري كورمينا يقيم في تندرما و يعتبر الشخصية الثانية في الدولة ، و عند نهاية القرن 16م فرضت السلطة العسكرية لفاري كورمينا نفسها على سائر أقاليم الغرب و أصبح حاكم كورمينا الزعيم الحقيقي ، أمّا فاري دندي أو حاكم إقليم دندي فكان يشرف على مقاطعات دندي أي على الجنوب الشرقي من المملكة ، و كان بمثابة الشخصية الثالثة في الدولة ، و هناك أقاليم أخرى ذات أهمية ثانوية كان يتولى شؤونها حكام يعينهم الأسكيا .

و أمّا الجيش فقد تطور بما يناسب اتساع المملكة و تقدمها ، و يتشكل من الخيالة و فرقة الفرسان ، و تتكون أسلحتهم من الدروع الحديدية بالإضافة إلى الرماح و التروس و هي من صنع محلي ، و هناك فرقة المشاة التي تشكل قسما كبيرا من الجيش ، و منهم الفدائيون و كتائب الإستطلاع و أسلحتهم الحراب و السهام و الفؤوس الحادة أحيانا ، و هناك الحرس الملكي الموجود بصفة دائمة في جيش سنغاي ، و أهم عمل يقوم به هو حراسة الملك و الحاشية و الضرب على الطبول و النفخ في الأبواق أثناء مسيرة الجيش.

و كان القضاء حقا من حقوق السلطان ، و كان الأسكيا يُفوّض في هذا الحق ممثلين له مستقلين تمام الإستقلال عن السلطة المركزية أو عن موظفيها ، و كان هناك قضاءان ، القضاء الإسلامي و يخضع له المسلمون ، و للقاضي حكمه القاطع و رأيه الأعلى و يعين مدى الحياة ، أمّا القضاء العرفي فكان يختص بالجزء الأكبر من المملكة بل حتى في المدن الإسلامية الكبيرة ، فكان الناس يسوّون خلافاتهم داخل نطاق الأسـرة أو على يـد رئيس المجموعة العرفية حسب تقاليد كل منهم .

ب الحياة الإقتصادية : تمكنت سنغاي بفضل موقعها الجغرافي من السيطرة على الطرق التجارية ، إذ تقع على نهر النيجر الذي يخترقها من الغرب إلى الشرق ، و من أهم موارد المملكة الأساسية الـزراعة ، و من المزروعـات الحبوب و الأرز كما توفرت الفواكه و الخضر و منهـا البطيخ و القرع و القطن و قصب السكر و الكروم و التين ، كما اعتنوا بتربية الحيوانـات فاستفـادوا منها الصوف و الجلود ، و كانت الأبقار و الماعز تربى في الأطراف الساحلية ، و كانت هذه المواشي تشكل موردا هاما للألبان و اللحوم خاصة سكان المدن ، كما مارسوا صيد الأسماك بكثرة .

و كانت المدن الواقعة على حدود السودان و الساحل مثل ولاتة و تمبكتو و جني و غاو كلها مراكز تجارة عبر الصحراء على صلة بالأسواق الكبيرة في الصحراء و شمال إفريقيا و من تمّ ببلدان أوربا المطلة على البحر المتوسط ، و كانت هناك طرق تخترق الصحراء انطلاقا من وادي النيجر متجهة نحو الشمال ، و أهمّ هذه الطرق :

- طريق تمبكتو-تغازة-توات المتجه إلى تافيلالت و المغرب .
- طريق تيشيت-ودانة في اتجاه درعة و تافيلالت .
- طريق غاو-تادمكة-غات المتجه نحو ليبيا و مصر .
- طريق غاو-تادمكة-غدامس المتجه نحو ساحل ليبيا و تونس .
- طريق غاو-هاوسا-كانم-برنو المتجه نحو وادي النيل.

و كانت المعاملات التجارية تتم بطريق المقايضة أو ذهبا أو ملحا أو نحاسا حسب الأسواق ، و كانت أهم الصادرات الذهب و العبيد و العاج و التوابل و القطنيات ، و أهم الواردات فكانت الأسلحة و الخيول و النحاس و المصنوعات

الزجاجية ، و كان الملح هو عصب التجارة المحرّك ، و قد ساعدت المبادلات التجارية على إثراء المدن و توفير قدر من الرخاء في الريف .

ج – الحياة الإجتماعية و الدينية : كان المجتمع في سنغاي سواء في المدينة أو القرية يتميز بأهمية الروابط الأسرية ، و كانت الأسرة هي العنصر الأساسي لهذا المجتمع الذي ورث العديد من العادات الإجتماعية التي كانت سائدة في مملكة مالي ، و كان المجتمع ينقسم إلى ثلاث طبقات ، الأولى طبقة العائلة المالكة و هم النبلاء و القواد و ولاة الأقاليم و حاشية الملك ، و اختصت هذه الطبقة بالوظائف الكبرى و عددهـــــــا قليل ، و الطبقة الثانيـــــــــة هي الطبقة المتوسطة و تضم القضاة و الأئمة و المدرسين و التجار ، و الطبقة الثالثـــــــــة فهي طبقة العبيد و الخدم و يقومون بالأعمال في الأسواق و المنازل و الحقول.

و لقد شجعت مملكـــــــة سنغاي لاسيما في عهد الأسكيا محمد العلم و العلماء حيث أخذ بيدهم و أحاط نفسه بهم ، و أصبحت هذه السياسة الإسلامية سياسة مقررة لخلفائه من بعده ، فالأسكيا إسحاق يسير في نفس الطريق من تشجيع العلماء و إكرامهم و الأخذ بيدهم ، و الأسكيا داود يتخذ خزائن الكتب و له نسّاخ ينسخون كتبه ، و قيل إنّه كان حافظا للقرآن ، و هذا يدّل على أنّ دولة سنغاي قد شهدت تمكن الإسلام من أهل غرب إفريقيا ، كما شهدت إزدهار الثقافة الإسلامية إلى أبعد الحدود.

و بالإضافة إلى ما تقدّم لم يكن الإسلام هو الدين السائد في القرنين 15م و 16 م إذ كانت أغلبية جماعات السنغاي و القوميات الأخرى التي تعيش في الريف باقية على تمسكها بما ورثت عن الآباء من معتقدات ، و كان البعض يعبد الجن و يعمل على كسب رضاهم ، و كان السحرة المطببون يحضون باحـــــــــترام الجماهير و توقيرها ، و كانوا يدّعـــــــون حماية المجتمع من الأرواح الشريرة ، و كان رئيس كل عشيرة يقدّم الفروض الدينية للموتى ، و هكذا كان الدين التقليدي راسخا في قلوب أهل الريف.

و كانت المدن مراكز فكرية و ساعد الفائض التجاري على نمو طبقة من المتعلمين عكفوا على خدمة الدين ، و اجتذب الرخاء العام إلى مدن سنغاي علماء قدموا من شتى الأقاليم ، و كانت أشهر جامعة هي جامعة سنكرى بتمبكتو التي كانت عبارة عن منتدى يجتمع فيه العلماء و التجار لمناقشة أمور دينهم ، و قد فاقت شهـــــــرة هذه الجامعة شهرة جامع القرويين في فاس و الزيتونة في تونس ، و أصبحت جامعة سنكرى ملتقى العلم و العلماء و تشع منها الثقافة الإسلامية غي غرب إفريقيا.

الملاحق

ملحق رقم 1 : خريطة بلاد السودان [1] .

[1] د/ عطية مخزوم الفيتوري، مرجع سابق، ص 138

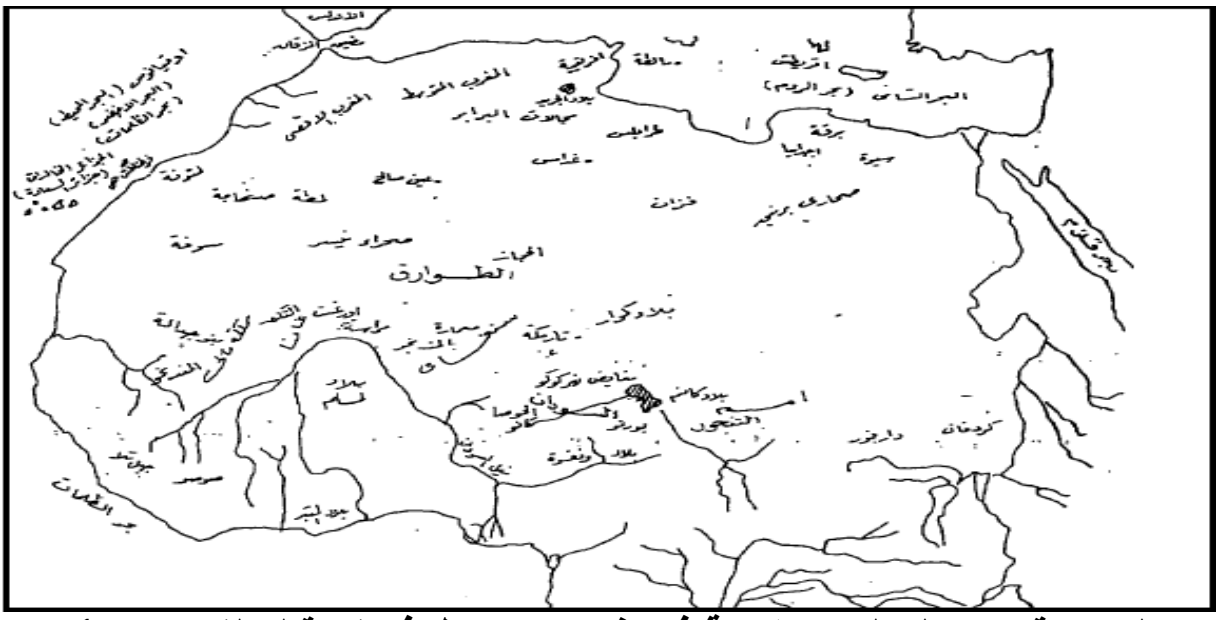

ملحق رقم 2 : الدول الإسلامية في غرب و وسط إفريقيا قبل القرن 15م[1] .

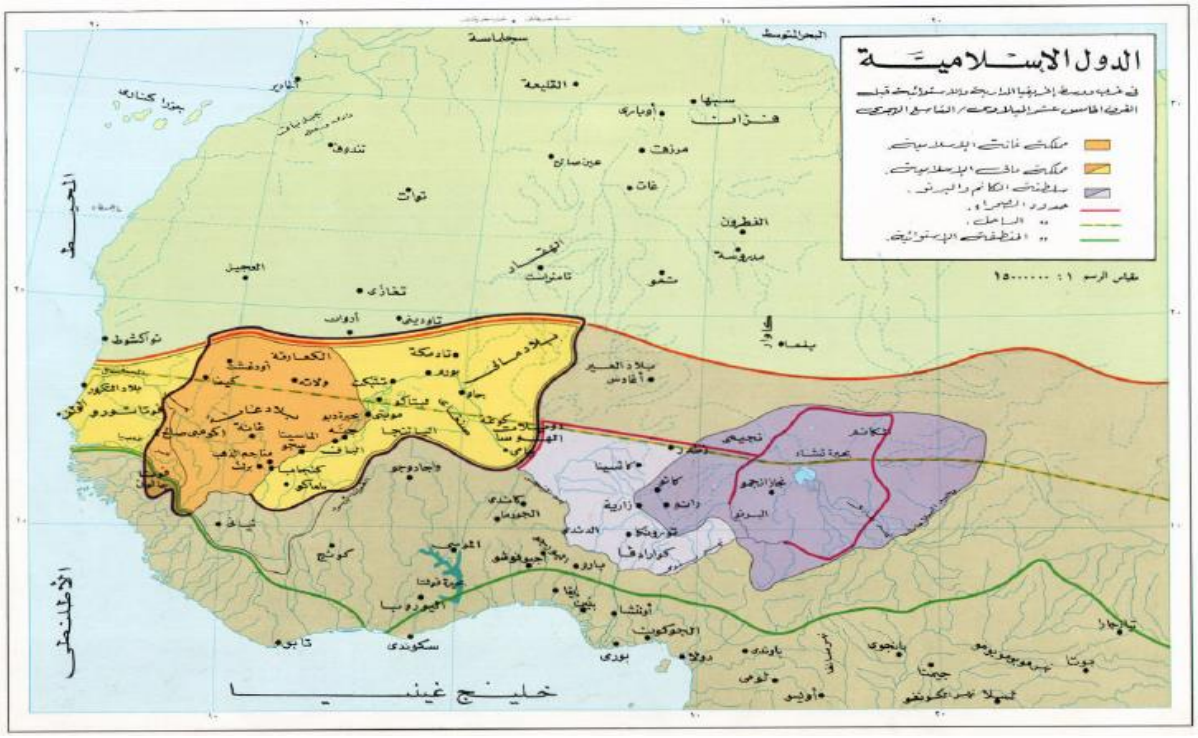

ملحق رقم 3 : خريطة مملكة الصنغاي[2] .

---

[1] د/حسين مؤنس، **أطلس تاريخ الإسلام**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1987م، ص 366 .

[2] د/شوقي أبو خليل، ، **أطلس التاريخ العربي الإسلامي**، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1984م، ص 75 .